مُقَدِّمَة

obeikandl.com

obeikandl.com

مُقدّمة

يتميز المجتمع الإسرائيلى كتجمع من المهاجرين المستوطنين بكونه فسيفساء من المجموعات البشرية التى تفصل بعضها عن بعض خيوط عرقية وثقافية كثيرة، وهو الأمر الذى راهنت الحركة الصهيونية على محوه وذوبانه، ولكنها فشلت فى ذلك فشلًا ذريعًا، وبدا المجتمع الاسرائيلى، الآن، وهو بعيد تمامًا عن الطبيعية التى سعت الصهيونية إلى تحقيقها من خلال ذلك الشعار الشهير (لنكن شعبًا مثل سائر الشعوب)، حيث وقع المجتمع الإسرائيلى فى مستنقع الصراعات الداخلية تارة، والصراعات الخارجية مع دول الجوار تارة أخرى. فمنذ قيام دولة إسرائيل عام 1948 وهى تعيش فى دوامة من الصراع، صراع مع الذات، وصراع مع الآخر.

ويتمثل الصراع مع الذات فى النزاعات الداخلية بين طوائف اليهود حول العديد من القضايا الداخلية، ويعد الصراع بين اليهود المتدينين واليهود العلمانيين، وكذلك الصراع بين اليهود الغربيين واليهود الشرقيين، من أشهر أشكال الصراعات التى يتميز بها المجتمع الإسرائيلى. أما الصراع مع الآخر، فيتمثل فى دوامة الحروب التى خاضتها إسرائيل ضد الدول العربية، منذ حربها عام 1948 ومروراً بانتفاضة الأقصى عام 2000، ووصولًا بحرب لبنان عام 2006.

وقد وقع الكثير من علماء النفس والاجتماع فى حيرة من أمر هذا المجتمع الذى يعيش على الصراع ويتغذى عليه، إن صح التعبير، حتى بات شعار الصهيونية بالعودة إلى الطبيعية "ولنكن شعبًا مثل سائر الشعوب" أمراً بعيد المنال، خاصة وأن تعاليم الصهيونية التى تدعو إلى العنف والقسوة فى التعامل مع الآخر، كانت هي السبب الرئيس فى تكوين هذا المجتمع على هذا النحو من التعلق بتلابيب الصراع حتى يستطيع العيش، وبذلك وقعت الصهيونية فى تناقض غريب بين دعوتها إلى الطبيعية ـ لنكن شعبًا مثل سائر الشعوب ـ وبين البعد عنها بغرز مفاهيم الصراع والعنف فى النفس اليهودية من خلال المؤسسات التعليمية الإسرائيلية والأدب الإسرائيلى المجند والتراث الديني اليهودي، كما سنبين لاحقًا.

وفى حقيقة الأمر، كان المقصود من هذه التعاليم هو الصراع العربى الإسرائيلى، فقد سعت الصهيونية دومًا إلى خلق شخصية يهودية جديدة تتناقض تمامًا مع شخصية وصورة اليهودي في بلاد الشتات؛ التى رأت أنها شخصية طفيلية هامشية لا تتناسب مع مرحلة

إنشاء كيان يهودى خالص على أرض فلسطين، فهذه المرحلة –فى رأى الصهيونية- تتطلب شخصية قوية وعنيفة تستطيع أن تحمل السلاح وتطرد وتغتصب وتدمر، فنشرت ثقافة الصراع بين جموع اليهود المهاجرة إلى فلسطين، ودربت النشأ على الجلد والعنف والقسوة وكراهية الجوييم (غير اليهود) من خلال اختلاق الكيبوتسات، حتى صارت الروح العدوانية من أهم السمات التى تتمتع بها الشخصية اليهودية الإسرائيلية.

وفى أحيان كثيرة، تنقلب هذه الروح العدوانية الموجهة في اتجاه الآخر(العربي) ضد الذات (الإسرائيلية)، فشاهدنا عام 1995مقتل يتسحاق رابين رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق على يد يهودي إسرائيلي يدعى ييجال عامير، ذلك الإسرائيلي المتدين الذي تأثر بفتاوى وتعاليم الحاخامات اليهود التي تحرم التنازل عن الأراضي العربية التي تم تحريرها من وجهة نظرهم؛ ومن هنا أهدر دم رابين وقتل يهودي يهودي آخر.

وقد عزا بعض المفكرين الإسرائيليين حالة هذا المجتمع إلى الوضع النفسى المعقد الذى يعيشه منذ ولادته العسيرة عام 1948، فالحرب تتلوها الأخرى والصراع يتلوه صراع، حتى صار المجتمع الاسرائيلى أشبه بالمجتمع الثكنة أو بالجندي الذي كتب عليه أن يقف مستعداً ومصوباً بندقيته طوال العمر، ومن ثم باتت الطبيعية أمراً بعيد المنال وأملًا لم يتحقق، ولم يكن هذا فحسب، فقد كشف لنا عدد كبير من علماء النفس فى إسرائيل عن مرارة نفسية عميقة تضرب بجذورها فى أعماق المجتمع الاسرائيلى، وشعور بالخطر الدائم حتى فى أوقات الانتصار.

وقد عزا الكثير من المفكرين أيضًا هذه الحالة التى يعيشها هذا المجتمع إلى الظروف والأحداث التى عاشها الإسرائيليون منذ قيام دولتهم. فقد تدخلت الصهيونية فى حياة الإسرائيليين بالفطرة، وتسببت فى كثير من المحن التى وقعوا فيها، لا سيما وأنها سعت منذ البدايات الأولى لقيام الدولة، إلى خلق نمط يهودى جديد يتناقض مع نمط يهود الشتات، فزرعت فى الشخصية اليهودية جينات الصراع والعنف، وهو أمر رأت أنه ضرورى لمجابهة تحديات الاستيطان والمقاومة، وبات المجتمع الإسرائيلى أشبه بالمجتمع الثكنة الذى يستعد فى كل وقت لمعركة جديدة داخليًا وخارجيًا.

من هنا كانت ثقافة الصراع التى نشرتها الحركة الصهيونية بين جماعات اليهود قبل المجيء إلى أرض فلسطين وبعد قيام دولة إسرائيل سببًا رئيسًا في تشكل هذا المجتمع على هذا النحو، فهو مجتمع يجابه محنة القلق الوجودي وحالة الاضطراب بممارسة العنف، وهو ما نشاهده كثيراً في ممارسات الجنود الإسرائيليين ضد الفلسطينيين فى المناطق المحتلة، وفى مشاهد الاقتتال بينهم فيما يتعلق بالصراع الداخلي الإسرائيلي بين المتدينين والعلمانيين.

هذا الكتاب، الذى يحمل عنوان (المجتمع الإسرائيلى وثقافة الصراع) والذي يكشف لنا عن جوانب الصراع فى الشخصية الإسرائيلية، وينقب في أسبابه ومصادره، يقع فى ثلاثة فصول، جاء الفصل الأول بعنوان (استلهام الصراع من الفكر الصهيوني والمفاهيم الدينية اليهودية داخل المجتمع الإسرائيلي)، وفيه يتم التنقيب فى المصادر التى تشع ثقافة الصراع ضد الآخر العربى فى المجتمع الإسرائيلى، مثل تعاليم الفكر الصهيوني والتراث الديني اليهودي المتمثل في التوراة والتلمود، ومثل المؤسسات التعليمية الإسرائيلية التى تحتوى مناهجها على كثير من دعاوى الكراهية والفكر المعادى للعرب؛ علاوة على ترسيخ مبدأ أراضى إسرائيل المحررة وكثير من المغالطات التاريخية التى تشيعها الصهيونية وإسرائيل فى عقول النشأ الإسرائيلى.

ويتناول هذا الفصل أيضًا، نفوذ الحاخامات اليهود داخل المجتمع الإسرائيلى والفتاوى التى يصدرونها فيما يتعلق بالصراع العربى الإسرائيلى، والتي تشكل خطورة كبيرة فى تأثيرها على مسار المفاوضات العربية الإسرائيلية حول الأراضى المحتلة. كما يتناول هذا الفصل أيضًا إشكالية الصراع بين اليهود المتدينين والعلمانيين، وكذلك الصراع بين اليهود الغربيين واليهود الشرقيين داخل المجتمع الإسرائيلى.

ويحمل عنوان الفصل الثاني (المنظور الديني للصراع على الأرض فى فتاوى الحاخامات اليهود)، وفيه تم استعراض وتفنيد الكثير من الفتاوى التى تصدر عن الحاخامات حول الأرض المحتلة، موضوع النزاع، والتي تستند إلى النصوص التوراتية والتلمود، بادعاءات الحق الديني لليهود في فلسطين، ومزاعم (أرض الميعاد) التى وعد بها الرب آباء إسرائيل، إبراهيم وإسحاق ويعقوب.

ويتناول هذا الفصل أيضًا حدود "أرض إسرائيل" الواردة فى العهد القديم وفى مفهوم الحاخامات اليهود، كما يتناول هذا الفصل الروح العدوانية فى هذه الفتاوى وتأصيلها، وكيف شكلت فتاوى الحاخامات اليهود المتطرفين وجدان النفسية الإسرائيلية المتدينة، وتعاظمت، إلى أن تخطت حدود المعقول، حينما تحدثت عن إهدار الدماء، حتى لليهودي، في سبيل المحافظة على (الأرض المقدسة) معتمدين فى ذلك على بعض النصوص المقدسة التى يأمر فيها الرب بقتل النساء والأطفال وتخريب المرتفعات، مثلما جاء في بعض النصوص التوراتية.

أما الفصل الثالث والأخير فيحمل عنوان (توظيف النص الأدبي لحل الصراع على الأرض دراسة في رواية "حمائم فى ميدان ترافلجر" للأديب الإسرائيلي "سامي ميخائيل")، وفيه يتم التطرق إلى عمل روائي لأحد الأدباء الإسرائيليين المعنيين بموضوع

الصراع، وهى رواية (حمائم في ميدان ترافلجر) التي صدرت في أبريل من عام 2005 للأديب الإسرائيلي "سامي ميخائيل"، تلك الرواية التى كشفت عن المناطق التي قد يتجاهلها بعض الأدباء الإسرائيليين في أعمالهم الأدبية، على اعتبار أن الأدب مرآة المجتمع، فهي تضع الأبناء فوق كل الأيديولوجيات والقوميات، وتحاول الإجابة عن أسئلة أخلاقية ملحة، وتنقب في الواقع الحقيقي للصراع الفلسطيني الإسرائيلي وتكشف عن الوجه الآخر منه، وتتمركز حول روافد جديدة من المواجهة الفلسطينية الإسرائيلية، وتحذر من تداعياتها بالنسبة للأجيال القادمة.

وقد أثارت هذه الرواية ردود فعل قوية على الساحة الأدبية في إسرائيل، وأحدثت سجالًا واسعًا بين النقاد، فيما يتعلق بصلتها برواية الأديب الفلسطيني "غسان كنفاني" (عائد إلى حيفا) 1970 والتي تتشابه أحداثها مع رواية ميخائيل، وهو الأمر الذي جعل ميخائيل يدافع عن نفسه قائلًا: "لقد انتهيت من كتابة هذه الرواية الجديدة، وهى رواية تواصل ما انتهت إليه رواية كنفاني، ذلك الأديب الفلسطيني الذي اغتيل في السبعينيات ببيروت على أيدينا. . ففي رواية كنفاني تنتهي القصة بلقاء صعب بين البطل وأبيه العربي، حيث يؤكد البطل على هويته بأنه يهودى، وتلك هي أمه وذلك هو أبوه، فيرد الأب: سوف يكون لقاؤك بأخيك في المعركة القادمة. ولكنني أبدأ من هنا من تلك النقطة التي انتهى إليها كنفاني".

كما تتناول هذه الدراسة لهذا العمل الروائي، في هذا الفصل، الانعكاس الحقيقي لواقع الصراع الفلسطيني الإسرائيلي، الذى تمثل فى الثكل وافتقاد الأبناء فى الحروب والكراهية المتبادلة بين الطرفين، وثقافة العنف ونبذ السلام كما طرحها ميخائيل، وفكرة المصير المشترك التى طرحها الأديب الإسرائيلى فى هذه الرواية، وحاول من خلالها وضع الحقوق الإسرائيلية على قدم المساواة مع الحقوق الفلسطينية المسلوبة، تحت دعاوى المصير المشترك والقدر المحتوم. وهى محاولة غير عادلة فيها غبن للحقوق الفلسطينية، وتسطيح لإشكالية الصراع.

د. عمرو عبد العلي علام

القاهرة فى يوليه 2007

E.mail: dr_amrelaly@yahoo.com
amrelaly@hotmail.com